خصائص الصورة الشعرية في شعر زهير بن أبي سلمى

د.إسماعيل مغمولي
جامعة عنابة

الملخص:

تعد الصورة الشعرية من أهم المصطلحات النقدية الحديثة، لما تحمله من دلالات وأبعاد فنية وجمالية وتعبيرية، ولما لها من ارتباط بالذوق والأخلاق والتفكير على حد سواء.

يتناول هذا المقال الصورة من حيث المعنى والمفهوم والسمات، كما يتناول الصورة التشبيهية وأنماطها، والصورة الشعرية في شعر زهير، تشكيلها وخصائصها.

Résumé:

L'Image Poétique est l'un des termes critiques modernes ; elle regroupe plusieurs significations et démentions esthétiques, artistiques et expressives.
Elle est aussi a un sens artistique, aux moeurs et a la réflexion.
Ce Travail étudie l'image du point de vue de sens du concept et des caractéristiques.
Il aborde aussi l'image comparative et ses types ,
L' image poétique ses composantes et ses caractéristiques.

لم يكتب زهير الشعر من باب الترف وإنما كتبه ليعبر عن قضايا مجتمعه المختلفة: سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا.

فشعره يعبر بدقة وصدق عن المجتمع الجاهلي وما يعانيه من آلام وما يتطلع إليه من آمال، وشجاعة الشاعر الأدبية، وقوة صبره، وخبرته بالحياة، وحكمته وتعقله أمدته بقوة معنوية هائلة حلت دون انهياره أمام الأحداث المختلفة، والتيارات الجارفة، وحولته إلى نبع متدفق العطاء باستمرار وما تركه لنا من آثار جليلة يدل دلالة واضحة على كثرة عطائه وتميزه في هذا المجال، فقد تفاعل مع قضايا بيئته الجاهلية وما فيها من إنسان وحيوان وطبيعة وشؤون حياتيه ودين، وراح يعبر عنها بصدق وواقعية ويصورها في أبهر صورة وأجملها، فمن ذكر الحبيبة والوقوف على الأطلال وذكر الأحبة ووصف البقر الوحشي إلى الدخول في المدح والهجاء والحكمة أو الرثاء وغيرها من الأغراض الشعرية المعروفة وقتذاك.

وسنتناول الصورة الشعرية عند زهير من حيث ما يأتي.

1- معنى الصورة لغة واصطلاحا :

ونحاول رصد معنى الصورة من خلال ترصد معناها اللغوي، والاصطلاحي.

2_ المعنى اللغوي:

الصّورَة مفرد، جمعها صوَر، يقال: صَوَّرَ الشيء فتصَوَّر وتصوَّرت الشيءَ: توهمت صورته، فتصوَّر لي، والتصاوير: التماثيل.(01)

وجاء في المعجم الوسيط في مادة (صوَّر): « جعل له صورة مجسمة، وفي التنزيل العزيز (هوَ الَّذِي يصَوِّركم فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشاء). وصور الشيء أو الشخص رسمه على الورق أو الحائط ونحوهما بالقلم أو الفرجون أو بآلة التصوير، و[صَوَّر] الأمر، وصفه وصفا يكشف عن جزئياته ».(02)

والصورة كل ما يصور، كقولنا: صورة شمسية، صورة تذكارية، وهي شكل الشيء ومظهره، من أشجار وحيوانات وتماثيل وغير ذلك، قال الله تعالى: (فِي أيِّ صورَةٍ مَا شاءَ رَكَّبَكَ)، وقد تعني « نوع، كقولنا: هذا الأمر على ثلاثة صور. [كما تعني] صفة الشيء أو نسخة من الشيء. وصورة الشيء: خياله في الذهن ».(03)

- المعنى الاصطلاحي:

للصورة معان متعددة منها:

- التأليف في المصور.

- أنها منهج معين يستخدم في الفن لترديد الواقع الموضوعي في شكل حي ومتعين وحسي يمكن إدراكه بطريقة مباشرة في إطار مثل أعلى جمالي محدد، وهي تمثل وحدة متداخلة بين الحسي والمنطقي، الجزئي والكلي، الخارجي والداخلي، الشكل والمضمون.(04)

ومن خلال ما سبق يتبين أن الصورة هي شكل الشيء وصورته وصفته ونوعه المادي المحسوس أو الذهني المتخيل.

أما التصور عند علم النفس هو استحضار صورة شيء محسوس في العقل دون التصرف فيه.(05)

وعند علما ء المنطق: إدراك المفرد أي معنى الماهية دون الحكم عليها بنفي أو إثبات وعكسه التصديق.

وعند الفلاسفة، مجموعة الأفكار التي يتصورها الإنسان حول الكون والحياة.(06)

ومن ثمة فالتصور، هو تكوين فكرة أو استحضار صورة الشيء وتمثل صورته سواء كان هذا الشيء ماديا أو معنويا.

أما التصوير فهو فن رسم الأشياء والأشخاص على ورق أو فلم بتأثير الضوء وبواسطة المصور (آلة التصوير).(07)

مفهوم الصورة الشعرية:

تعد الصورة الشعرية من أهم المصطلحات النقدية الحديثة، لما تحمله من دلالات وأبعاد فنية وجمالية وتعبيرية، ولما لها من ارتباط بالذوق والأخلاق والتفكير على حد سواء، وإذا أردنا أن نتعرف على مفهومها علينا أن نتتبع مفهوم هذا المصطلح عبر المراحل الزمنية المختلفة عند عدد من أعلام اللغة والنقد حتى نتعرف على ماهية هذا المصطلح.

وقد أورد الجاحظ (ت 255 هـــ) مصطلح التصوير في كتاب الحيوان، ففي باب (القول في اللفظ والمعنى) أورد رأي أبي عمر الشيباني في استحسان المعنى، وأن « المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي،..... وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج ..... وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير ».(08)

فالتصوير هو إبراز الصورة وصياغتها في شكل فني جمالي من صورتها الحسية أو المعقولة إلى الخارج.

وعد قدامة بن جعفر (ت337هـــ) الشعر صناعة من الصناعات، وأن « الغرض من كل صناعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال ».(09)

وأن اللغة هي مادة الشعر وأداته، ومن ثمة فهي وسيلة لتشكيل الصور الشعرية وصياغتها، وأن « المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة، من أنه لا بد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة، والفضة للصياغة وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى – كان – من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلـــك إلى الغايـــة المطلوبة ».(10)

فقد جعل صاحبنا (الشعر كالصورة) وعلى الشاعر أن يستحضر مادة الشعر (اللغة) ويشكل منها الصور المختلفة.

ويمكننا أن نقف عند مفهوم الصورة عند عبد القاهر الجرجاني (ت 471) في كتابه دلائل الإعجاز، من خلال ما أورده في سياق حديثه عن الاستعارة وما لها من المزية والفخامة، وأن التمثيل مثلها « وحكم التمثيل حكم الاستعارة سواء فإنك

إذا قلت: أَرَاك تقَدِّم رِجْلاً وَتؤَخِّر أخْرَى، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجري على الظاهر، فتقول:قد جعلت تتردد في أمرك فأنت من يقول: أخرج ولا أخرج فيقدم رجلا ويؤَخِّر أخْرَى».[11]

فالصورة هي الحالة التي عليها هذا الشخص من تردد (فيقدم رجلا ويؤخر أخرى) وبالتالي فالصورة عنده وصف يكشف عن حالة هذا الشيء.

وقد أورد صاحبي معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب رأيا طريفا يوضحان فيه مفهوم الصورة عند الجرجاني، وأن الصورة عنده « معناها الخلاف بين بيتين من الشعر مشتركين في معنى واحد. فهو ينكر السرقات في الشعر جملة، ويرى أن لكل شاعر أسلوبه ونظمه في عرض معانيه. وأن البيتين من الشعر مهما بلغ اتحادهما في المعنى لا بد من وجود خلاف بينهما. ذلك الخلاف الذي يطلق عليه عبد القاهر مصطلح (الصورة) ».[12]

فمن خلال ما سبق تبين أن هذا المصطلح ورد وفق صور مختلفة، فهو عند الجاحظ التصوير، الذي يعني إبراز الشـــعر في صورة فنية جمالية رائعة.

أما قدامة بن جعفر فقد جعل الشعر مثل الصورة، وأن اللغة هي الأداة التي تتشكل منها الصور.

أما الجرجاني فيرى أن الصورة هي الحالة التي يكون عليها الشيء.

البعد التداولي للصورة:

مما لا شك فيه أن مفهوم الصورة قديم قدم الإنسان، وإذا كانت الصورة منبثة في ثنايا الطبيعة الحية والميتة، وموجودة في الإنسان وما يتصل به من صفات خلقية وخلقية وما يحيط به وما يتعلق به من جوانب مادية وأدبية، كذلك يعد الكون والحياة مصدران آخران من مصادر استحضار الصور المادية والمتخيلة «وتستعمل كلمة الصورة -عادة- للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي».[13]

وكان الإنسان إذا أراد أن يصور مشهدا من المشاهد، أو حادثة من الحوادث أو واقعة من الوقائع استحضر ذلك المشهد وعبر عنه بواسطة اللغة.

فاللغة أداة ووسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والأحاسيس والانفعالات ووسيلة للتفاهم والتواصل بين أفراد الجماعة البشرية «ولا شك في أن دقة التصوير باستيفاء عناصره الضرورية؛ لتكون الصورة واضحة في نفس القارئ والسامع هي الوسيلة الفعالة للتأثير في الفكر والوجدان».[14]

والمتتبع لمصطلح « صورة » يجد أنها تستعمل على نطاق واسع وعلى أكثر من صعيد.

- ففي المدرسة والمتوسطة والثانوية والجامعة تعد من أهم وسائل الإيضاح على الإطلاق.

- وفي الإعلام المكتوب تكتسي الرسوم الكاريكاتيرية والصور والخرائط والرسوم البيانية أهمية خاصة في التعريف والتأثير والإقناع.

- وفي الإعلام السمعي البصري تكتسي الصورة أهمية بالغة الخطورة في الحجة والإقناع والتأثير وصناعة الرأي العام.

- وتلعب الصورة دورا حيويا في عملية الإشهار للتعريف بالسلع من حيث اسمها وصفتها وأهميتها والترويج لها.

فالصورة تحيط بنا من كل جانب وتتلقفها العين مرئية، والأذن مسموعة وتأثر على عقولنا وعواطفنا وتوجهنا هذه الوجهة أو تلك، وذلك حسب مقصدية كل طرف من أطراف العملية الإشهارية أو التواصلية.

البعد التركيبي للصورة:

من المعلوم أن مقتضيات الكلام العربي يسير وفق ترتيب معين، ويجري وفق تركيب خاص، وهو إما مسند أو مسند إليه، والإسناد في العربية يتكون من الناصر الآتية:

1- الإسناد.

2- المسند.

3- المسند إليه.

فالكلام إما مسند أو مسند إليه أو بالعكس، والمسند والمسند إليه يحققان معا البيان أو الإبلاغ أو الإخبار. وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: (الرَّحْمَن عَلَّمَ القرآنَ خلقَ الإنسانَ علَّمَه البيان). [سورة الرحمن؟، 1-4].

وهو ما يعرف في التراث اللغوي العربي بمصطلح (العمدة) فالكلام العمدة، هو الكلام الأساسي الذي لا يمكن الاستغناء عنه، أما الفضلة في الكلام هو ما يمكن الاستغناء عنه، فالكلام العربي = (بنية تركيبية + بنية دلالية).

وهذه البنية التركيبية مشحونة بمعان وظلال تستشفها من سياق الكلام وقرائن الأحوال « وتتآزر فيها مجموعة من الصور البنائية المتنامية التي تسير في اتجاه تشكيل عمل جمالي يحدد موقف الشاعر من الكون والفن والأشياء».[15]

وصورة التركيب هي « الوسائل التي تؤثر في الترتيب الطبيعي لغرض بلاغي»[16] وهذه الوسائل التي تؤثر في الترتيب الطبيعي للجملة هي التقديم والتأخير أو الحذف والذكر.

أما الصورة البلاغية فهي « كل جملة لغوية يراد بها المعنى البعيد – لا القريب – للألفاظ، أو يغير فيها الترتيب العادي لكلمات الجملة أو حروف الكلمة، أو يحل فيها معنى مجازي محل معنى حقيقي، أو يثار فيها خيال السامع بالتكنية عن معان يستلزمها المعنى المألوف للفظ ».[17]

أما الصورة البيانية فهي تلك الصورة التي يعبر فيها عن المعنى المراد عن طريق التشبيه أو الاستعارة أو الكناية.

إذن الصورة البيانية صورة مركبة من طرفين: مشبه ومشبه به ويسميان طرفي التشبيه، وهذان الطرفان إما يذكران في سياق وصف الصورة، وهذا هو التشبيه، وإما أن يذكر طرف واحد من طرفي المعادلة وهذه هي الاستعارة بنوعيها (المكنية والتصريحية).

البعد اللساني للصورة:

ذهب اللغويون قديما وحديثا في شأن قضية اللغة طرائق مختلفة، فذهب القدماء إلى أنها ألفاظ تدل على معان وهذه المعاني موضوعة بإزاء الأذهان لا بإزاء الأعيان، وهي ما عناها العاني وقصدها القاصد وهي أمور ذهنية.

وانطلاقا من ذلك تتبين لنا العلاقة الجدلية القائمة بين الفكر واللغة، وأن كل منهما يكمل الآخر في الواقع الموضوعي والعملي يفرض علينا جمعهما كما نجمع بين وجهي الورقة النقدية، فإن حاولنا الفصل بينهما تمزق الوجهان.

وهذا ما ذهب إليه علماء اللغة المحدثين، ففرديناند دو سوسير يرى « إن العلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم بل تصورا بصورة سمعية، وهذه الأخيرة ليست الصوت المادي الذي هو شيء فيزيائي صرف، بل هي الدفع النفسي لهذا الصوت، أو التمثل الذي تمبنا إياه شهادة حواسنا ».[18]

ومن ثمة فالعلامة اللسانية عنده كيان ذو وجهين، و « يمكن تمثيله بالشكل الآتي:

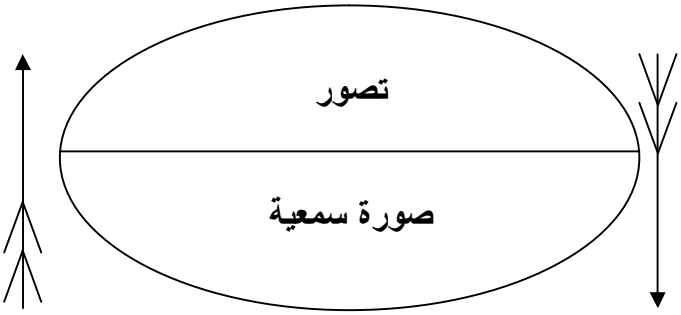

والتصور والصورة السمعية عنصران مرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا وقويا كما يدعو الواحد منهم الآخر ».[19]

فالتصور: هو الصورة الذهنية.

والصورة السمعية: هي أصوات الكلمة.

ويمكن تبديل كلمتي تصور وصورة سمعية بكلمتي المدلول والدال، على حد تعبير سوسير

وذهب بنفينست إلى « إن الذهن لا يتقبل من الأشكال الصوتية إلا ذلك الشكل الذي يكون حاملا لتمثل يمكنه التعرف عليه، وإلا رفضه بوصفه مجهولا وغريبا. فالدال والمدلول، والتمثل الذهني والصورة الصوتية هما في الواقع وجهان لأمـــر واحد ويشكلان معا كالمحْتوِي والمحْتَوَى. فالدال هو الترجمة الصوتية للمفهوم، والمدلول هو المقابل الذهني للدال. إن وحدة الجوهر هذه للدال والمدلول هي التي تضمن الوحدة البنيوية للعلامة اللسانية ».[21]

فالصورة اللغوية، هي معادلة ذات طرفين مترابطين ومتلازمين تلازما مطلقا، وهما: الصورة الصوتية + الصورة الذهنية، واللذان يشكلان معا العلامة اللغوية.

السمات العامة للصورة:

تطورت وسائل الإعلام والاتصالات وتطورت وتعقدت وتعددت بشكل يكاد لا يصدق، فهناك الاتصالات الرقميـــة، والسمعية والبصرية التي تعتمد على الصوت والصورة، فأضحت الصورة غداء ومادة إعلامية على أكثر من صعيد، وأكثر من مجال، من مجالات الحياة المختلفة، وهي في كل مجال لها مفهومها وسماتها الخاصة بها، وأبعادها، مثلما ذهبت إليه بعض القواميس الحديثة.

فقاموس أكسفورد الحديث ذهب إلى أن للصورة أبعاد ودلالات، وتتمثل في:

1- البعد الذهني، أي: أنها صورة ذهنية.

2- البعد الانطباعي، فالصورة انطباع عند الناس.

3- أنها صورةapicture

4- إنها صورة أو نسخة عن الشيء.[22]

ومن سمات الصورة:

- البراعة في حسن التصوير والتأليف.
- تلعب دورا مهما في إقناع المتلقي والتأثير فيه فكريا ووجدانيا.
- تحقق المتعة الفنية والمنفعة العقلية؛ فهي تحدث في المتلقي الراحة النفسية، وتزوده بأفكار جديدة عن المعنى المراد تبليغه.
- إعطاء المشاهد نظرة كلية عن الشيء بما يحمله من معان وظلال ورموز وإيحاءات.

الصورة التشبيهية وأنماطها:

وإذا أردنا أن نتكلم عن الصورة التشبيهية فإنه لا بد لنا من معرفة ماهيتها وأركانها (مكوناتها).

مفهوم التشبيه:

تعريفه لغة، التشبيه في اللغة، التمثيل،[23] تقول: شبهت هذا بهذا، أي: مثلته به، وجاء في القرآن الكريم في سياق حديثه عن شأن قتل سيدنا عيسى عليه السلام: (وَقَوْلِهِم إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسولَ اللهِ. وَمَا قَتَلوه وَمَا صَلَبوه وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهمْ).[24] فالمدلول اللغوي للتشبيه يتحدد في دائرة التمثيل.

واصطلاحا: هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر آخر في معنى مشترك بينهما بإحدى أدوات التشبيه لفظا وافتراضا.[25]

أركانه، للتشبيه أركان أربعة هي:

1- المشبه.

2- المشبه به.

3- أداة التشبيه.

4- وجه الشبه.

أما المشبه والمشبه به ويسميان طرف التشبيه.

ويجوز في العملية التشبيهية حذف الأداة، أوجه الشبه، أو حذف الأداة ووجه الشبه معا، أما حذف أحد الطرفين، أو كليهما فغير جائز.

أنواع الصورة الشعرية:

ذهب النقاد والفنانون مذاهب مختلفة في دراسة الصورة الشعرية من حيث أنواعها وأنماطها ودلالاتها.

وبما أن الصورة هي أحد أنظمة التواصل والتعبير الأكثر استعمالا وانتشارا وتأثيرا في الوقت الحاضر لما لها من أهمية اجتماعية واقتصادية وسياسية، كان لزاما علينا تزيلها المنزلة اللائقة بها، وتوجيهها الوجهة السليمة لخدمة الفن وترقية الذوق الإنساني الرفيع، لا جعلها أداة لتحطيم الأخلاق وإفساد الذوق.

وذهب الغربيون إلى أن الصورة تنحصر دلالاتها في خمس دلالات:

« 1- الدلالة اللغوية. 2- الدلالة الذهنية. 3- الدلالة النفسية. 4- الدلالة الرمزية. 5- الدلالة البلاغية ».[26]

أما الدراسات النفسية فحصرت الصورة الذهنية في أنماط مختلفة من الصور:

ومنها: الصورة البصرية ، والسمعية ، والذوقية ، واللمسية والحركية.[27]

وعد (برنار توسان) العناصر السابقة الذكر من بين أنظمة التواصل والتعبير غير اللسانية، وهي عنده على نوعين:

1- مجالات التواصل الأقل استعمالا من طرف الإنسان، وهي: العلامات الشمية، واللمسية والعلامات الذوقية.

2- المجالات الأكثر استعمالا، وتتمثل في: العلامات السمعية – البصرية والأيقونية.[28]

أما البلاغيون فيصنفون أنماط الصور إلى التصنيفات الآتية:

1- الصورة التشبيهية.

2- الصورة الاستعارية.

3- الصورة الكنائية.

4- الصورة البديعية.

الصورة الشعرية في الديوان:

استمد شاعرنا صوره من واقع البيئة الجاهلية، فصورة الأطلال وصورة المرأة، والخيل، والحمار الوحشي، والأتان، والصيد، والخصب والجدب والصحراء، والجبال، والوديان، والأشجار، والغلال، وصورة الجود والكرم، والخمرة والحرب والسلم.

وصورة الإيمان العميق والتوحيد الخالص، كلها صور حاضرة وبقوة في شعر زهير، وتبرز فلسفة الشاعر في الحياة، ونظرته إلى الكون والحياة والإنسان، ولعل طريقة الشاعر في نظم قصائده،[29] وتخير ألفاظه وتراكيبه ساهمت في إبراز جمالية الصورة ونقائها.

لأن للغة قدرة فائقة في تصوير المشاهد، ورسم الصور، وتسجيل الأحداث والوقائع بألفاظ رنانة وتراكيب جميلة وموسيقى عذبة، وصور فنية رائعة وأخاذة، فالكاتب الشاعر يستطيع بالصورة أن يقرب البعيد ويبعد القريب، ويحرك الساكن ويسكن المتحرك، ويجعل الميت حيا والحي ميتا.

ولها من الطاقات التعبيرية المتجددة، ومن القدرة على الوصف والتصوير والتعبير ما لا يخطر على بال.

بالإضافة إلى ذلك فهي لغة شاعرة لها من المميزات الفنية، ومن العذوبة في أصواتها والبراعة في نظم تراكيبها وحسن تأليفها ما يجعلها قادرة على استيعاب كل جديد ومسايرة لواقع الحياة.

وقد لعبت البيئة الجاهلية دورا كبيرا في إلهام الشاعر بالصور والأخيلة والأحاسيس وبالمواقف المختلفة.

فالصورة الشعرية عند زهير هي صورة الأطلال وآثار الديار البالية التي رحل أهلها عنها، وتركوا ذكريات عزيزة غالية، لها وقعها ولها أثرها في نفسية الشاعر من ذلك:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلِّمِ (1-16)

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (2-16)

بِهَا الْعَيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاَؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (1-17)

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهّمِي (1-18)

أَثَافِيَ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ ... وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ (2-18)

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ (1-19)

فالشاعر يستهل نصه باستفهام، والسؤال كما يقول سقراط: "مفتاح المعرفة". وهو هنا سؤال المتوجع؛ لأن منزل حبيبته امحى وأصبح أثرا بعد عين، ومن الآثار الدالة على بقائه (دمنة، حومانة الدراج، المتثلم، الرقمتين، أَثَافِيَ سفْعًا، مُعَرَّسِ، نُؤْيًا). فهذه الآثار هي علامات دالة على بقايا آثار ديار الحبيبة، فالشاعر الذي ظل الطريق وأجهد نفسه بالبحث عن ديار أم أوفى، وبعد مشقة وجهد كبير، وجد آثار أحالته على المكان الذي كان على صلة به منذ عشرين سنة «وهذا الارتباط بالمكان أو بالطلل الذي علق بذهن العربي خلال تلك الفترة يعد أمرا مشروطا في حياته، فرضته طبيعة التلون المادي للجسد في صراعه مع الطبيعة القاسية، كما أعطى لديه استجابة مشروطة بين الذات في وعيها بفاجع من الفزع الروحي والشعور الداخلي بالطمأنينة».[30]

ومن الصور الشعرية الرائعة التي نجدها في شعر زهير تلك الصور التي رسمها للصيد من ذلك:

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً ... مَتَى نَرَهُ فَإِنَّنَا لاَ نُحَاوِلُهْ (2-105)

فَبَيْنَا نَبَغِّي الْوَحْشَ جَاءَ غلاَمَنَا يَدِبّ ويخْفِي شَخْصَه ويضَائِلهْ (3-105)
فَقَالَ شِيَاهٌ رَاتِعَاتٌ بِقَفْرَةٍ بِمسْتَأْسِد القرْيَانِ حوٍّ مَسَائِلهْ (4-105)
ثَلاَثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَاءِ ونَاشِطٌ قدِ اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جَحافِلهْ (1-106)
وَقَدْ خَرَّم الطرَّاد عَنْه جحَاشه فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ نَفْسه وحَلاَئِلهْ (2-106)
وَقَالَ أَمِيرِي: مَا تَرَى رَأْيَ مَا تَرَى أَنَخْتِله عَنْ نَفْسِه أَمْ نصَاولهْ (3-106)
فَبِتْنَا عَرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يزَاولنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنزَاولهْ (1-107)
فَنَصْربه حَتَّى اطْمَأَنَّ قَذَالَه وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبه وَخَصَائِله (2-107)
نَظَرْتْ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْته ... عَلَى كل حالٍ مَرَّةً هوَ حَامِله (1-109)
يثِرْنَ الحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهوَ لاَحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيه صِيَابٌ أَوَائِلهْ (2-109)
فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعِيرَ مِنْ دونِ إِلْفِهِ عَلَى رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاه وَفَائِلهْ (3-109)

فالشاعر يرسم صورا نابضة بالحياة، وهي صور متحركة مستمدة من واقع البيئة الجاهلية، فيرسم صورة الصيادين وقد خرجوا إلى الصيد باكرين، قاصدين هدفهم جهارا نهارا، ثم يرسم صورة غلامه الذي يقصد الصيد في حركة بطيئة حذرة مخاتلة حتى لا ينفر الصيد منه.(31)

ثم يصور الحمر الوحشية وهي راتعة بمكان خصب وافر المرعى كثير الماء، آمنة مطمئنة وبعد شبعها تركن إلى الراحة.

وعندما تحس بالخطر تصدر أصواتا لتجتمع وبعدها تتفرق في كل اتجاه، وهو أسلوب دفاعي تلجأ إليه عندما تحس بالخطر.

ثم يصور الفرس وهو يطارد الحمار الوحشي، والإصابة التي نالت الصيد.

وهي صور واقعية عاشها الشاعر حقيقة، فراح يرسم مشاهدها وأحداثها في صور غاية في الدقة والإتقان.

ومن الصور الشعرية الرائعة صورة التكفل بحاجات الناس الاجتماعية والإنسانية، صورة الجود والكرم عند آل هرم بن سنان، والحارث بن عوف.

إذا السَّنَة الشَّهْبَاء بالنَّاسِ أَجْحَفَتْ وَنَالَ كِرَام المَالِ فِي السَّنَةِ الأَكل (2-92)
رَأَيْتَ ذَوِي الحَاجَاتِ حَوْلَ بيوتِهم قَطِينًا لَهمْ حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْل (2-92)
هنَالِكَ إِنْ يسْتَخْبَلوا الْمَالَ يخْبِلوا وَإِنْ يسْأَلوا يعْطوا وَإِنْ يَيْسِروا يغْلوا (1-93)
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وجوهها وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابهَا الْقَوْل وَالْفِعْل (2-93)
...
عَلَى مكْثِرِيهِمْ حَقّ مَنْ يَعْتَرِيهم وَعِنْدَ المقِلِّينَ السَّمَاحَة وَالْبَذْل (3-94)

فالناس إذا أجدبوا وحل بهم القحط لجأوا إلى قوم هرم ابن سنان والحارث ابن عوف طلبا لما يسد حاجاتهم، ومن الصور الشعرية الرائعة تلك الصور التي رسمها الشاعر عن الحرب، والتي اعتمد فيها على الإحالة على تجارب القوم في الحرب الخاسرة التي خاضوها، والتي أتت على الأخضر واليابس، وهذا الموقف تمثله الصور الآتية:

وَمَا الْحَرْب إلاَّ مَا عَلِمْتم وَذقتم وَمَا هوَ عَنْها بالْحَدِيثِ المرَجَّم (5-26)
مَتَى تَبْعَثوهَا تَبْعَثوهَا ذَمِيمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتموهَا فَتَضْرَم (1-27)

فَتَعْـــركككمْ عَـــرْكَ الرَّحَـــى بِثِفَالِهَـــا وَتَلْقَـــحْ كِشَـــافًا، ثمَّ تنْـــتجَ فَتتْـــئِمِ (2-27)
فَتنْـــتَجْ لَكـــمْ غِلْمَـــانَ أَشْـــأَمَ كلّهـــمْ كَـــأحْمَرِ عَـــادٍ ثمَّ ترْضِـــعْ فَـــتَفْطَمِ (1-28)
فَتغْلِـــل لكـــمْ مَـــالاَ تغِـــلّ لأَهْلِهَـــا قـــرىً بِـــالْعِرَاقِ مِـــنْ قَفِيـــزٍ وَدِرْهَـــمِ (2-28)

فالشاعر هنا يرسم لوحة فنية رائعة عن الحرب، فالقوم عاشوا أمر الحرب حقيقة، فليس أمر الحرب عندهم من أحكـــام الظنون المغيبة عليهم، وإنما هي أمر شاهدوه وعاشوه بالفعل، لذلك يحثهم في سياق آخر، في غير هذا الموضـــع، علـــى التمسك بالصلح ويخبرهم عن سوء عاقبة الحرب؛ فهي نار ودمار على الناس، تطحنهم طحن الرحى بثفالها للحب، وأن هذه الحرب تدوم زمنا طويلا وشديدا، فتكون مثل الناقة التي تلحق كشافا ثم هي لا تلد إلا نتاجا ضعيفا رديئا، وهكـــذا تتضاعف ويلات الحرب متى أشعلوها.[32]

فالشاعر هنا يترع إلى تصوير المشاهد تصويرا ماديا، وتشخيص المواقف في صور فنية محسوسة منتزعة من صميم البيئة التي يعيش فيها، فالبيئة بدوية، والصور المستحضرة، هي صور الحرب المدمرة المهلكة التي أتت على الأخضر واليابس. فالشاعر يسجل موقفا واضحا وسريعا من الحرب، فليس لديه تلك الاستجابة والتردد والاهتزاز النفسي لويلات الحرب وأحداثها. فموقفه واضح ورأيه صريح لا غبار عليه.

ومن الصور الشعرية الرائعة صورة الرحلة، فالرحلة جزء من حياة الإنسان الجاهلي، فهو بين حل وترحال، بين كر وفر، بين إقبال وإدبار، فالحركة جزء من حياته اليومية سواء أكان ذلك في السلم أم في الحرب، والرحلـــة لم تكـــن ســـهلة، فالمسالك وعرة والطريق غير آمن، والمفاجآت السارة وغير السارة، هي سيدة الموقف بين كل حين وحين. ومع كل هذا وذاك فإن الرحلة لا تخلوا من متعة، وعناصر الجمال بها حاضرة من ذلك:

تَبَصَّـــرْ خَلِيلِـــي هَـــلْ تَـــرَى مِـــنْ ظَعَـــائِنٍ تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَـــاءِ مِـــنْ فَـــوْقِ جـــرْثُمِ؟ (2-19)
عَلَـــوْنَ بِأَنْمَـــاطٍ عِتَـــاقٍ وَكِلَّـــةٍ وَرَادٍ حَوَاشِـــيهَا مشَـــاكِهَةِ الـــدَّمِ (3-19)
وَفِـــيهِنَّ مَلْهًـــى لِلطَّيْـــفِ وَمَنْظَـــرٌ أَنِيـــقٌ لِعَـــيْنِ النَّـــاظِرِ المتَوَسِّـــمِ (1-20)
بَكَـــرْنَ بكـــورًا وَاسْـــتَحَرْنَ بِســـحْرَةٍ فَهنَّ وَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَـــدِ فِـــي الْفَـــمِ (2-20)
جَعَلْـــنَ القِنَـــانَ عَـــنْ يَمِـــينٍ وَحَزْنَـــه وَكَـــمْ بِالْقِنَـــانِ مِـــنْ مُحَـــلٍّ وَمُحْـــرِمِ (3-20)
ظَهَـــرْنَ مِـــنَ السّـــوبَانِ ثمَّ جَزَعْنَـــه عَلَـــى كـــلِّ قَيْنِـــيٍّ قَشِـــيبٍ وَمفْـــأَمِ (1-21)
وَوَرَّكْـــنَ فِـــي السّـــوبَانِ يَعْلُـــونَ مَتْنَـــه عَلَـــيْهِنَّ دَلّ النَّـــاعِمِ المتَـــنَعِّمِ (2-21)
كَـــأَنَّ فتَـــاتَ الْعِهْـــنِ فِـــي كـــلِّ مَنْـــزِلٍ نَزَلْنَ بِـــهِ حَـــبّ الْفَنَـــا لَـــمْ يُحَطَّـــمِ (1-22)
فَلَمَّـــا وَرَدْنَ الْمَـــاءَ زرْقًـــا جِمَامُـــه وَضَـــعْنَ عِصِـــيِّ الحَاضِـــرِ المتَخَـــيِّمِ (2-22)

فالشاعر يرسم لنا مشهدا مليئا بالحركة، فالرحلة لها بداية ونهاية؛ بدايتها العلياء (تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جرْثُمِ) ولها ستار تسلكه وفق مراحل، وكان مسارها كما يأتي:

العلياء ← وادي الرس ← القنان ← السوبان.

والشاعر يقف عند كل محطة، ويرسم معالم في شكل فني أنيق فيه جمال وبهاء، ومما يوحي أن الرحلـــة كانـــت جميلـــة منطلقها: ويتمثل جماله في صورة النسوة وهن على الإبل:

تَبَصَّـــرْ خَلِيلِـــي هَـــلْ تَـــرَى مِـــنْ ظَعَـــائِنٍ تَحَمَّلْـــنَ بِالْعَلْيَـــاءِ مِـــنْ فَـــوْقِ جـــرْثُمِ؟

ومسارها:

بَكَـــرْنَ بكـــورًا وَاسْـــتَحَرْنَ بِســـحْرَةٍ فَهِـــنَّ وَوَادِي الـــرَّسِّ كَالْيَـــدِ فِـــي الْفَـــمِ

ونهايتها في هذه الصورة الرائعة، صورة الماء الصافي الذي لم يعكر صفوه أحد:

فَلَمَّـــا وَرَدْنَ الْمَـــاءَ زرْقًـــا جِمَامُـــه وَضَـــعْنَ عِصِـــيَّ الحَاضِـــرِ المتَخَـــيِّمِ

تشكيل الصور الشعرية في الديوان:

من المعلوم أن الصورة التشبيهية، معادلة ذات طرفين: الطرف الأول، هو المشبه، والطرف الثاني: المشبه بـــه. وبتقابـــل الطرفين وانتظامهما في سياق لغوي معين تتشكل الصورة، وهذا السياق يحمل بين طياته أبعادا متعددة ومنها:

البعد اللغوي، والبعد الفني، والجمالي.

وقد يتعرض أحد طرفي المعادلة إلى الحذف، فقد يحذف المشبه والمشبه به وحينئذ نتحصل على صورة من نوع آخر: إنها الصورة الاستعارية بنوعيها (الاستعارة المكنية أو التصريحية). كما نلمس صورا أخرى ضمن ثنايا النصوص وسياق الكلام المختلفة من قبيل الصورة الكنائية.

فالصورة التشبيهية تتخذ صورا وأوضاع مختلفة، وإذا تأملنا الصورة الشعرية في شعر زهير فإننا نجد للحواس دور مهم في تشكيل الصورة الشعرية فقد « استوحى العرب كثيرا من ألفاظ الألوان، وتلك ظاهرة عامة في اللغات – من المصـــادر الطبيعية، والمعادن، والنباتات، والموجودات المحيطة بهم، والمشاهدات الحسية في البيئة التي عاشوا فيها ».[33] ومن بـــين الأدوات التي استعان بها الشاعر في تشكيل الصورة الشعرية الحواس الخمس؛ لذلك نجد صورة اتخذت أشكالا متعددة فهي إما صورا مرئية

أو سمعية، كما نجد بعض الصور الشمية، بالإضافة إلى الصور الذوقية واللمسية "لذلك يمكننا أن نقول أن القنوات الحسية لعبت دورا مهما في تشكيل الصورة في شعر زهير".[34]

أ- الصورة المرئية: من المسلم به أن الصورة موجودة في أذهاننا، أو في الواقع المادي المحيط بنا، ومن ثمة تلتقطهـــا العـــين مرئية، والأذن مسموعة ، والأنف مشمومة، واليد ملموسة، واللسان مذوقة.

ومن الصور المرئية نورد قول الشاعر:

كَـــــأَنَّ بَرِيقَـــــه بَرَقَـــــان سَـــــحْلٍ جَـــلاَ عَـــنْ مَتْنِـــهِ حـــرضٌ وَمَـــاء (2-63)

هذه صورة مرئية مستمدة من واقع البيئة الجاهلية، يشبه فيها الشاعر بريق الحمار ولمعانه حين انجرد من وبره. ببريق ثوب أبيض غسل بالحرض فجلا لونه.

ومثل ذلك:

لَـــوْ كَنْـــتَ مِـــنْ شَـــيْءٍ سِـــوَى بَشَـــرٍ كَنْـــتَ الْمَـــنِيرَ لِلَيْلَـــةِ الْبَـــدْرِ (5-82)

يشبه هرم بن سنان في وضاءته وإشراقة وجهه بالْمنيرَ لِلَيْلَةِ الْبَدْرِ.

والديوان زاخر بالصور المرئية من ذلك قول الشاعر:

تَبَصَّرْ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جرْثُمِ؟ (2-19)

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلطَّيْفِ وَمَنْظَرٌ أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المتَوَسِّمِ (1-20)

فالشاعر من كثرة وجده وتعلقه بالحبيبة، توهم لفرط ولهه بها أنه يراها ويرى ديارها علما أن حبيبته قد رحلت عن هذه الديار منذ عشرين سنة؛ لذلك اندرست آثارها و لم يبق منها إلا الرسوم البالية.

ثم ينتقل إلى وصف النسوة اللائي يلهى بهن، فيطبن منظرا للمتأمل في محاسنهن وهي صورة مرئية تبرز عناصر الجمال الموجودة في البيئة الجاهلية.

ب- الصورة السمعية: لعب السمع دورا مهما في تشكيل الصورة الشعرية لدى الشاعر زهير، من ذلك:

تَسْمَعَ لِلْجِنِّ عَازِفِينَ بِهَا تَضْبَحَ مِنْ رَهْبَةٍ ثَعَالِبُهَا (2-191)

هذه الصورة السمعية استمدها الشاعر من واقع الحياة الجاهلية، فالبيئة المهجورة يسكنها الجن، وإن كان الجن من العالم الخفي إلا أنه قد يتشكل ويتمظهر في صور مختلفة، فالقاصد لهذه البلدة يسمع لهم أصواتا مثل العزف، مثل صوت المزمار والطبل، وهي أصوات مرعبة ومخيفة، ونظرا لهذا الموقف المرعب فإن الثعالب تصيح من جراء هول الموقف.

ومن بين الأصوات السمعية الرائعة ما نجده في قول الشاعر:

وَتصْبِي الْحَلِيمَ بالْحَدِيثِ يَلذّه وَأَصْوَات حِلْيٍ أَوْ تَحَرّكِ دمْلجِ (2-237)

يصف الشاعر صوت محبوبته وأنه صوت رخيم تستطيع من خلاله أن تشوق وتستهوي العاقل، وأن هذا الصوت له وقع على قلب سامعيه مثله مثل وقع الحلي أو حركة الدملج التي لها وقعها ولها أثرها في نفسية السامع.

وهذا الصوت الذي يشكل الصورة عند زهير قد يكون صوت إنسان أو حيوان أو آلة أو حلي أو شيئا من أشياء الطبيعة.

فمن صوت الحيوان، نمثل له بصوت الأسد:

تَدَاعَتْ عصْبَةٌ مِنْ ولْدِ ثَوْرٍ كَأَسْدٍ مِنْ مَنَاطِقِهَا الزَّئِير (1-251)

ومن صوت الإنسان قوله:

وَقَالَتْ أمّ كَعْبٍ لاَ تَزرْنَا فَلاَ وَاللهِ مَا لَكَ مِنْ مَزَارِ (1-250)

كما استطاع أن يجعل من عناصر الطبيعة كائنات حية من ذلك صمت الديار:

وَقَفْتُ بِهَا رَأْدَ الضَّحَاءِ مَطِيَّتِي أسَائِل أَعْلاَمًا بِبَيْدَاءَ قَرْدَدِ (1-161)

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا لاَ تجِيبنِي نَهَضْت إِلَى وَجْنَاءَ كَالْفَحْلِ جَلْعَدِ (2-162)

فالشاعر جعل من الأعلام: وهي العلامات التي يهتدي بها الضال كائنات حية تسمع وتعقل لذلك راح يسائلها، فلما رأى أنها لا تجيبه تركها ونهض إلى ناقته الضخمة الشديدة.

ج- الصورة الشمية: وهي من الصور التي يعتمدها الشعراء والفنانون في تشكيل الصورة إلا أن حضروها نادر جدا في الديوان، مثلها:

لَهُمْ رَاحٌ وَرَاووقٌ وَمِسْكٌ تعَلّ بِهِ جلودهمْ وَمَاء (3-64)

فالصورة الشمية تتمثل في صورة المسك الذي له رائحة طيبة.

د- الصورة الذوقية: من بين الصور التي لها حضور في تشكيل الصورة الشعرية عند زهير، من ذلك قول الشاعر:

كَأَنَّ رِيقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ طِيبِ الرَّاحِ لَمَّا يَعْد أَنْ عَتضقَا (1-40)

فالشاعر يصف ريق حبيبته وأنه ريق ذو طعم طيب.

هـ- الصورة اللمسية: وقد لعب اللمس دورا بالغا في تشكيل الصورة الشعرية، من ذلك:

وإذ يلاَقِي نجدة مَعْلومَةً يَصْلَى الْكمَاة بِحَرِّهَا لَمْ يَبْلِدِ (3-199)

ف (يَصْلَى الْكمَاة) أي يحرقون بحر النار.

وقد لعبت الحواس دورا مهما في إبراز الصورة المحسوسة، أما الصور المعنوية للنفس البشرية وما تحتويه من أفكار وعواطف وأحاسيس وجدانية وسبيله في إبراز مكامن النفس المجاز وأداته الرمز.

وإذا تأملنا الصورة التشبيهية في شعر زهير فإننا نجد أنها جاءت وفق حالتين:

أ- الصورة التشبيهية الساكنة.

ب- الصورة التشبيهية المتحركة.[35]

أ- الصورة التشبيهية الساكنة، هي صورة منتزعة من واقع الطبيعة الميتة، ومن ثمة فهي صورة جامدة لا حركة فيها ولا حياة، وهي تصور مشهدا ثابتا جامدا ميتا يتميز بالسكون، من ذلك قول زهير:

أَمِنْ أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلِّمِ (1-16)

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَاجِع وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (2-16)

فالشاعر هنا يستحضر صورة الأطلال الذي يعد من أهم مكونات القصيدة الجاهلية والذي يحمل في طياته أبعادا بنوية جمالية.

فالطلل تقليد جاهلي يرتقي إلى دائرة المقدسات، فالشاعر لا يمكنه الخروج عن هذا التقليد، وكيف لا؟ والطلل مرتبط بمأوى الإنسان ومسكنه، مرتبط بحله وترحاله، فهو مستقر الشاعر وموطن انتمائه، يجتمع فيه الناس ويدبرون شؤون معاشهم ويعترف الناس ببعضهم البعض كبارا وصغارا، ويمدون جسورا من التواصل والألفة فيما بينهم، وينشؤون علاقات اجتماعية وإنسانية مع بعضهم البعض وحينما يجذبون يتركون بيوتهم التي ألفوها، ويرحل كل واحد منهم إلى

وجهة معينة بحثا عن الكلأ والماء. وهذا التفرق المحتوم الذي فرضته الطبيعة وقوانينها، يترك وراءه آثار سلبية اجتماعيا وإنسانيا؛ لذلك ترى الشاعر كما يقول ابن قتيبة:

« أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين (عنها)، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحو القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي إصغاء الأسماع لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء..... فرحل في شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وانضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير، بدأ في المديح ».[36]

فالشاعر يقف على الأطلال ويسائلها متوجعا مما آلت إليه هذه الديار التي أصابها ما أصابها من خراب فأصبحت أثرا بعد عين، وأن هناك علامات دالة على هذه الآثار (دمنة، حومانة الدراج، المتثلم) وهي رموز دالة على أن هناك خرابا ودمارا حصل؛ لذلك راح يسائل هذه الديار لعلها تجيبه أو يجد متنفسا لحاله؛ لأن الديار ديار الحبيبة فيها ذكريات عزيزة غالية على الشاعر.

لذلك راح الشاعر يشبه آثار الديار بوشم تردده المرأة حتى يثبت في كفها، وهي صورة ساكنة، فالديار ساكنة والوشم ساكن.

ب- الصورة التشبيهية المتحركة: وهي صورة مستمدة من واقع الطبيعة الحية ومن واقع الحياة الاجتماعية (الإنسان) أو الحيوان وهي صورة متحركة، تعتمد على الحركة أساسا في إبراز عناصرها، من ذلك قول الشاعر:

فَأَوْرَدهَا حِيَاضَ صَنَيْبِعَاتٍ فَأَلْفَاهنَّ لَيْسَ بِهِنَّ مَاء (2-60)

فَشَجَّ بِهَا الأَمَاعِزَ وَهْيَ تَهْوِي هَوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاء (3-60)

هذا مشهد فني مستمد من واقع الحياة الجاهلية، والجمال الفني هنا يكمن في تصوير حركة الأتن، فالشاعر رسم لنا صورة حية متحركة، كأننا نراها رأي العين، فقد صور الأتن وهي تهوي نحو الماء بغية الشراب منه، مثلها في ذلك مثل هوي الحبل المنقطع منه الدلو، فكلاهما قصد الماء و لم يحصل عليه.

ومن بين الصور المتحركة المشهد الآتي الذي يصف فيه الشاعر رحلته إلى الصيد رفقة غلامه:

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى نَرَهُ فَإِنَّنَا لاَ نُخَاتِلُهْ (2-105)

فَبَيْنَا نَبَغِّي الْوَحْشَ جَاءَ غلاَمَنَا يَدِبّ وَيَخْفِي شَخْصَه وَيضَائِلهْ (3-105)

فالشاعر يبرز صورتين فنيتين جميلتين:

الصورة الأولى: صورة الصيادين المبكرين إلى الصيد بفرسهم، المعتمدين على سرعته في إدراك الصيد ومواجهته دون كيد أو خداع.

والصورة الثانية صورة حركة الغلام الذي (يَدِبّ وَيخْفِي شَخْصَه وَيضَائِلهْ). فهو يمشي مشية حذرة وفق حركة رشيقة متناسقة ومتناغمة حتى لا ينفر منه الصيد.

عنصر الحركة والسكون:

الحركة والسكون ظاهرتان مستمدتان من صميم البيئة الجاهلية، فالشاعر يصور ما يحيط به من قضايا تخص: الطبيعة أو الكون أو الحياة أو الإنسان، أو يتحرك بداخله من أحاسيس وأفكار وعواطف، في صور فنية جميلة، وهذه الصور سواء أكانت مستمدة من صميم البيئة السهلية أو الجبلية، البدوية أم الحضرية، الصحراوية أم التلية، أو من أعماق النفس البشرية فإنها لا تعدو أن تكون صورة متحركة أو ساكنة، من ذلك قول زهير:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلِّمِ (1-16)

دِيَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا ... مَرَاجِعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (2-16)

بِهَا الْعَيْنُ والأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَأَطْلاَؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ (1-17)

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهّمِي (1-18)

أَثَافِيَ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ ... وَنُؤْيًا كَجَوْضِ الجِدِّ لَمْ يَتَثَلَّمِ (2-18)

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا: ... أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ (1-19)

هذه صورة مستمدة من واقع البيئة الصحراوية تجمع بين السكون والحركة، السكون المتمثل في الدمن (آثار الديار المهجورة) والأماكن المختلفة، وهي تمثل الحيز المكاني الذي كان الشاعر يسكنه أو يتحرك فيه أو يسمع عنه و « أن إصرار الشاعر على ذكر تلك الأماكن التي سكنها إنما هو من شدة تعلقه بها وحبه إياها بصفتها الوطن الذي ينتمي إليه، وهذا يباعد بين الشعر وتعداد الأماكن لمجرد التعداد، فالمكان ظرف الحدث الذاتي والاجتماعي ».[37]

فالمكان رمز له دلالته الاجتماعية والإنسانية، فهو يرتبط بناس أعزاء كانوا يسكنون هذا المكان وفجأة رحلوا عنه، وهذا المكان يحيلنا إلى ذكريات عزيزة غالية عاشها الشاعر مع الأحبة في زمن معين.

والحركة المتمثلة في حركة البقر الواسعات العيون، والظباء البيض يمشين في حركة منتظمة فوجا بعد فوج، و « أنهن ينمن أولادهن إذا أرضعنهن ثم يرعين، فإذا ظنن أن أولادهن قد أنفدن ما في أجوافهن من اللبن صوتن بأولادهن، فينهضن للأصوات ليشربن ».[38] وحركة أولادها وهن ينهضن لأصوات أمهاتهن ليشربن اللبن.

والحركة قد تكون خفيفة رشيقة مثلما يصور لنا الشاعر حركة الغلام، وهو يختال الصيد:

فَبَيْنَا نَبَغِّي الْوَحْشَ جَاءَ غُلاَمُ ... يَدِبّ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهْ (3-105)

وقد تكون حركة قوية وسريعة، مثلما يصور لنا الشاعر حركة الحصان وهو يطارد الصيد:

يُثِرْنَ الحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهْوَ لاَحِقٌ ... سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهْ (2-109)

عنصر الصوت وحاسة السمع:

لعبت الحواس دورا كبيرا في إبراز الصورة الشعرية عند زهير فهناك الصورة المرئية والسمعية والذوقية واللمسية والشمية. وتعد حاسة البصر من أهم الحواس التي اعتمد عليها الشاعر في محاكاة عناصر الطبيعة، تليها حاسة السمع في الأهمية من حيث كونها أداة فاعلة في تشغيل الصور الشعرية، وفي محاكاة عناصر الطبيعة. من ذلك:

يغَرِّدُ بَيْنَ خَرْمٍ مفْرَطَاتٍ ... صَوَافٍ لاَ تَكَدِّرُهَا الدِّلاَءُ (3-61)

إِذَا مَـــا سَـــمِعْنَا صَـــارِخًا مَعَجَـــتْ بِنَـــا ... إِلَـــى صَـــوْتِهِ ورْقٌ المَرَاكِـــلِ ضـــمَّر (2-158)
وَسَـــــامِعَتَيْنِ تَعْـــــرِف الْعِتْـــــقَ فِيهِمَـــــا ... إِلَى جَذْرِ مَـــدْلوكِ الكعـــوبِ مُحَـــدَّدِ (1-164)
تَسْـــــمَع لِلْجِـــــنِّ عَـــــازِفِينَ بِهَـــــا تَضْـــبَح مِـــنْ رَهْبَـــةِ ثَعَالِبِهَـــا (2-191)

فالصورة الشعرية المحسوسة تلتقطها العين مرئية، والأذن مسموعة إلى مخيلة الشاعر، التي تعمل على تشكيل صورة شعرية غاية في الجودة والدقة والإبداع، فالتغريد والصراخ والعزف كلها أصوات جميلة تطرب لها الأذن وتعشقها النفس.

خصائص الصورة الشعرية:

لعله من المفيد أن نبدأ خصائص الصورة الشعرية عند زهير بن أبي سلمى، برأي الجاحظ فيما يخص نظرتـــه إلى اللفـــظ والمعنى: «المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير».[39]

فقد أرجع الجاحظ الشاعرية إلى البراعة في الصياغة والتصوير، وأن ذلك يؤدي إلى التأثير في النفوس وبالتالي تحقيق الراحة والمتعة الفنية، ونعني بالصورة في هذا المقام الصورة التشبيهية من تشبيه واستعارة وكناية، والتي تهدف إلى:

- توضيح الشيء وإبانته.
- تهدف إلى تقريب البعيد وإبعاد القريب، ورفع درجة الأدنى إلى الأعلى وبالعكس.
- تهدف إلى المبالغة والبيان والإيجاز.
- تحقيق المتعة الفنية، والمنفعة العقلية.
- تلعب دورا كبيرا في إقناع السامع (المتلقي) والتأثير فيه عن طريق استحضار الصورة وبيان ما تهدف إليه.
- تناسب الصورة مع مقتضيات الأحوال.
- تعد أداة فعالة في التعبير عن قضايا الشاعر وأحاسيسه ومواقفه تجاه ما يحيط به.
- اعتماد الشاعر على الخيال في تشكيل صورته المنتزعة من واقع البيئة الجاهلية.
- الصورة تسجل حقائق واقعية.
- كما أنها تعكس رؤية الشاعر للكون والحياة والإنسان.

هوامش الدراسة:

(01)- ينظر: الرازي، مختار الصحاح. دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط4، 1990م، ص242.

(02)- المعجم الوسيط، د/ إبراهيم أنيس وآخرون، (د ط، د ت). ص553.

(03)- المعجم العربي الأساسي، ص756.

(04)- محمود السيد الدغيم، الصور الشعرية عند عدنان النحوي. مجلة الأدب الإسلامي. المجلد 4، عدد 13، رجب رمضان 1417هـ - 1997م. ص40 – 41.

(05)- ينظر: المعجم الوسيط، ص553.

(06)- ينظر: المعجم العربي الأساسي، ص755.

(07)- المرجع نفسه، ص 756.

(08)- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق وشرح محمد عبد السلام هارون. دار الجيل، بيروت، 1412هـ - 1992م.ج3. ص131 – 132.

(09)- قدامة بن جعفر، نقد الشعر. ص64.

(10)- المرجع نفسه، ص65، 66.

(11)- الجرجاني، دلائل الإعجاز. ص84 ،85.

(12)- مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص 227.

(13)- د. مصطفى ناصف، الصورة الأدبية. دار الأندلس، بيروت- لبنان، (د. ت). ص 3.

(14)- صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم. الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر. 1995. ص 22.

(15)- - د.محمد أحمد العزم، "اللغة الشعرية والتعبير بالصور في النقد العربي القديم". الفيصل. عدد 88. السنة الثامنة، شوال/تموز 1404 ه/ 1984 م. دار الفيصل، الرياض، ص 57.

(16)- مجدي وهبة، كامل المهندس، مرجع سابق، ص 227.

(17)- المرجع نفسه، ص227.

(18)- فردنان ده سوسير، محاضرات في الألسنية العامة. ترجمة يوسف غازي، مجيد النصر. المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986م. ص88.

(19)- ينظر: المرجع نفسه، ص88.

(20)- المرجع نفسه، ص88، 89.

(21)- Benviniste; problems de linguistique generale: Tome 01: Gallumard: 1966: p 52:

(22)- - قاموس أوكسفورد الحديث. Oxford word power. Oxford university press. p 392.

(23)- ينظر: الرازي، مختار الصحاح. ص214. وانظر: المعجم الوسيط. ص497.

(24)- سورة النساء، من الآية: 157.

(25)- ينظر: القزويني، الإيضاح، ج4، ص16. وانظر: التفتازاني، مختصر السعد، ص284.

(26)- د/ ناصر علي، بنية القصيدة في شعر محمود درويش، وزارة الثقافة، عمان، الأردن 2002م، ص172.

(27)- ينظر: المرجع نفسه، ص180.

(28)- برنار توسان، ما هي السيميولوجيا. ترجمة محمد نظيف، إفريقيا الشرق – المغرب، ص20.

(29)- كانت قصائده تسمى بالحوليات؛ لأنه كان ينظمها في ثلاثة أشهر، وينقحها في ثلاثة أشهر، ويهذبها في ثلاثة أشهر، ويعرضها على أخصائه في ثلاثة أشهر. فكان لا يخرج قصيدة إلا بعد مرور الحول.

(30)- الرمز الصوفي في الشعر العربية المعاصر (دراسة في الملامح والدلالات). أطروحة دكتوراه دولة في الأدب الحديث. جامعة عنابة. 2006-2007 م. ص ص: 24-25.

(31)- ينظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند السيد قطب. ص 26.

(32)- ينظر: ديوان زهير ابن أبي سلمى، شرح وتقديم: على حسن فاعور. ص ص: 107-108.

(33)- د/ أحمد مختار عمر، اللغة واللون. عالم الكتب، القاهرة. ط2، 1997م، ص83.

(34)- ينظر: د. أحمد الوردني، "الصورة في شعر محمد الأمين الشريف توظيف حاسة العين". مجلة المسار. اتحاد الكتاب التونسيين. عدد 78. ماي/ جوان 2007. ص 74.

(35)- ينظر: لخضر عيكوس، "الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية للعصر الجاهلي". مجلة علوم إنسانية. جامعة قسنطينة. عدد 05. 1994. ص ص: 07-08.

(36)- ابن قتيبة، الشعر والشعراء. دار الثقافة - بيروت- لبنان (د ت). ج1، ص20، 21.

(37)- د/ عبد القادر الرباعي، زهير بن أبي سامى (الصورة الفنية في شعره). جدار الكتاب العالمي، عمان- الأردن، عالم الكتا الحديث. إربد- الأردن. ط1، 2006م، ص46.

(38)- علي حسن فاعور، ديوان زهير بن أبي سلمى. ص103.

(39)- الجاحظ، الحيوان. جزء 03. ص ص: 31-32.